تمهيد

تعد اللغة ظاهرة اجتماعية، مرتبطة أشد الارتباط بثقافة مستعمليها، هذه الثقافة التي يمكن تحليلها بحصر المواقف الاجتماعية المختلفة والمسماة بسياقات مقامية، ففكرة المقام هي الأساس الذي ينبني عليه الشق الاجتماعي للغة، فهو يعتبر أحد المحاور الأساسية، التي أفضى الحوار بصددها إلى تجديد الدراسات اللغوية التي تمخضت؛ فأنجبت درس التداوليات، الذي لا يمكن اعتباره إلا دراسة للأقوال، باعتبار السياق. ولذلك فلسياق أهمية كبيرة وضرورة لا غنى عنها لمحلل الخطاب، خاصة عندما يتعلق الأمر بالبحث عن الدلالة والمعنى.

أولا: النظرية التداولية

تقوم النظرية التداولية للنص على مفهوم مقام الخطاب، حيث كان الخطيب يقف في الموقف المخصص له، ويسعى إلى كسب انتباه المستمعين مراعيا بذلك أقدارهم وحالاتهم حسب تعبير الجاحظ، وهذا ما نلمسه بدقة في صحيفة بشر بن المعتمر، التي تعد منطلقا أساسيا للتفكير البلاغي المراعي لمختلف العناصر التداولية في عملية التواصل.

ونقصد بالنظرة التداولية؛ تلك النظرة التي تقوم على البحث في العلاقات التفاعلية بين النص وبين منتجه من جهة، وبينه وبين متلقيه من جهة أخرى، مع مراعاة مختلف العناصر المقامية المؤثرة في هذه العلاقات.

وهكذا استطاعت النظرية التداولية؛ أن تعيد النظر في مجموعة من القضايا التي كان يرتكز عليها البحث اللساني. **فالتداولية** :إذن هي دراسة للجانب الإستعمالي للغة، وتكمن وظيفة التداولية "في استخلاص العمليات التي تمكّن الكلام من التجذر في إطاره الذي يشكل **الثلاثية الآتية : المرسل – المتلقي – الوضعية التبليغية**. إن أي تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسياق التي تؤول فيه الجملة، و هنا يتجلى العنصر الرابط بين مختلف النظريات والتوجهات التي شكلت ما نسميه التداولية، و هو السياق فاختلاف الزاوية التي ينظر من خلالها إلى السياق، هو الذي جعل تلك النظريات تختلف فيما بينها في تحديد ماهية التداولية.

ثانيا: السيّاق

يعرّف السياق في المعاجم الحديثة بأنّه" بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه" [1]. يجب أن نعرف أن الكلام هو عملية تواصل بين شخصين أو أكثر، يهدف من خلالها المتكلم إلى نقل رسالة إلى السامع. ولكي يتم

التواصل بشكل فعال، يجب أن يكون المتكلم قادراً على اختيار الكلمات المناسبة، وبناء الجملة المناسبة، والسياق المناسب و **"بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه"** يشير إلى مجموعة العوامل التي تحيط بالكلام وتؤثر في معناه. وتشمل هذه العوامل ما يلي:

- **السياق اللغوي** :وهو مجموعة الكلمات والجمل التي تسبق الجملة المراد تفسيرها. فمثلا، الجملة "الكتاب على الطاولة" لها معنى إذا كانت تتبع جملة "أين وضعت الكتاب؟" ولها معنى آخر إذا كانت تتبع جملة "هل يمكنك إحضار الكتاب؟."
- **السياق الاجتماعي** :وهو العلاقة بين المتكلم والسامع، وكذلك السياق الثقافي والاجتماعي الذي يتم فيه الكلام. فمثلا، الجملة "مرحبا" لها معنى إذا قيلت من قبل صديق إلى صديق، ولها معنى آخر إذا قيلت من قبل موظف إلى الرئيس.
- **السياق النفسي :**وهو الحالة الذهنية للمتكلم والسامع في وقت الكلام. فمثلا، الجملة "أنا آسف" لها معنى إذا قيلت من قبل شخص يشعر بالندم، ولها معنى آخر إذا قيلت من قبل شخص يشعر بالسخرية

ويعرّفه آخرون بأنّه" علاقة البناء الكلّي للنصّ بأيّ جزء من أجزائه" [2] فهو كل قول يشير إلى أن كل جزء من نص ما له علاقة وثيقة بالبناء الكلي للنص. هذه العلاقة تتمثل في أن كل جزء من النص يساهم في بناء النص ككل، ويسهم في تحقيق الهدف الذي من أجله كتب النص. **مثال:** إذا قرأنا مقالاً حول موضوع معين، فإن كل فقرة من المقال تسهم في بناء الفكرة الرئيسية للمقال. كل فقرة تضيف معلومة أو فكرة جديدة تؤدي إلى إكمال الصورة العامة للمقال. إذا حذفنا فقرة من المقال، فإننا نفقد جزءًا من هذه الصورة، وبالتالي يضعف النص ككل.

ويعرفه تمام حسان "المقصود بالسياق (التوالي) ، ومن ثم ينظر إليه من ناحيتين أولاهما: توالى العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك، والسياق من هذه الزاوية يسمى (سياق النص) ."

والثانية: توالى الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال ومن هذه الناحية يسمى السياق (سياق الموقف) .

يقوم السياق في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها وقد أشار العلماء إلى أهمية السياق أو المقام وتطلّبِه مقالا مخصوصا يتلاءم معه، وقالوا عبارتهم المشهورة "لكل مقامٍ مقال"

كما أنّ الكلمة لا معنى لها خارج السياق الذي ترد فيه.

وعليه تشير هذه التعريفات إلى سياقات عديدة في النصّ تساهم في صياغة الرسالة اللّغويّة، وهي: **السياقات النحويّة**: تشير إلى القواعد اللغوية التي تحدد كيفية تركيب الكلمات والعبارات والجمل.

والبلاغيّة: تشير إلى استخدام الوسائل البلاغية مثل المحسنات البديعية والصور الفنية لإثراء المعنى وزيادة تأثير الرسالة. **والسياقات الصوتيّة**: تشير إلى العوامل الصوتية مثل النبر والإيقاع وطبقة الصوت التي تؤثر على تلقي الرسالة.

وانطلاقا منها يتداخل العديد من الاعتبارات النفسيّة: تتمثل في الحالة النفسية للمرسل والمستقبل، مثل مشاعرهم وأفكارهم ، والاجتماعية : تتمثل في العوامل الاجتماعية التي تحيط بالتواصل اللغوي، مثل الثقافة والتقاليد والعلاقات الاجتماعية. [3]. وقد اهتمّ النّقاد واللّسانيّون والأسلوبيّون بالسياق من وجهات مختلفة ، فدرس **(أوستن)** استخراج السياق من خلال البنى المختلفة للرسالة اللّغوية [4]. لأنّ المعنى الحقيقي للرسالة اللغوية لا يكمن في الكلمات والعبارات نفسها، بل في السياق الذي يتم فيها قولها. ولذلك، فإن استخراج السياق من خلال البنى المختلفة للرسالة اللغوية هو عملية ضرورية لفهم المعنى الحقيقي للرسالة. و يُعَدُّ فيرث **Firth** من أشهر العلماء الذين اهتمُّوا بالمنهج السياقي في دراسة المعاني، ووضع تأكيدًا كبيرًا على الوظيفة الاجتماعية للغة، وقد صرَّح بأن المعنى لا ينكشف إلَّا من خلال تسييق الوحدة اللُّغوية؛ أي: وضعها في سياقات مختلفة. يُفَسَّر المعنى بمقتضى هذه النظرية باعتباره وظيفة في سياق معين مما يعني أن العلامات اللغوية يتغير معناها تبعا لموقعها في السياق الذي وردت فيه، وقد عُدَّت أعمال كل من: "مايكل هاليداي و"جون كانيسون كاتفورد، و"جوش بازل أحد أكثر الأعمال بروزا في هذا الإطار

ثالثا: أهمية السياق

تطورت المقاربة السياقية على يد العالم الفيزيائي الأمريكي "بريدجمان"Bridgman.) في كتابه "منطق الفيزياء الحديثة" الذي صرح فيه بأن "المعنى الحقيقي للكلمة يكمن في ما يفعله الإنسان بها وليس في ما يقوله بشكل خاص" جاعلا بذلك المعنى رهنا للاستعمال وهو رأي نجده حاضرا بقوة في أعمال الفيلسوف "فيتجنشتاين" الذي ذكر في مباحثه الفلسفية أن "معنى أي كلمة هو استعمالها في اللغة" فالمعنى هو الدور الذي تؤديه الكلمة في سياق دون غيره. لقد كان لهذه التصورات أن وجدت صداها لدى

"فيرث" الذي تبنى مقولة الاستعمال اللغوي ضمن السياق، لأنه كان يسعى إلى العثور على منهج علمي دقيق يتدارس المعنى دراسة علمية موضوعية تقصي كل ما يكون خاضعا للحالات العقلية الباطنية وقائما على الحدس والتصورات فيكون كفيلا بتعويض الدراسات التي سبقته.

لقد بيَّن "فيرث" حدود الاهتمام بالسياق اللغوي حين أشار إلى أنه من الممكن أن يصف منهجه "بالتحقق السياقي المتسلسل"، بمعنى أن هناك سياقات متعددة ومتداخلة يؤدي كل منها وظيفة هامة ضمن الإطار السياقي العام للنص

أنواع السيّاق: لقد بيَّن "فيرث" حدود الاهتمام بالسياق اللغوي حين أشار إلى أنه من الممكن أن يصف منهجه "بالتحقق السياقي المتسلسل"، بمعنى أن هناك سياقات متعددة ومتداخلة يؤدي كل منها وظيفة هامة ضمن الإطار السياقي العام للنص، وتبعا لذلك صنف "فيرث" السياق إلى أنواع تتمثل في:

1- السياق اللغوي: حيث قد تتَّضح دلالة الكلمة داخل النص الواردة فيه، ويمكن التمثيل له بكلمة (يد) التي ترد في سياقات متنوّعة؛ منها) :أعطيته مالًا عن ظهر يد؛ يعني: تفضُّلًا، يد الفأس ونحوه: مَقبِضُها، يد الدهر: زمانِه ...إلخ

2- السيّاق العاطفي: هو يُحدِّد درجة القوَّة والضَّعْف في الانفعال؛ مما يقتضي تأكيدًا أو مبالغة أو اعتدالًا، فكلمة (يكره) العربية غير كلمة (يبغض) رغم اشتراكهما في أصل المعنى كذلك.

3- السيّاق الثقافي: ويقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة؛ يعني اختلاف المعاني باختلاف المجال والسياق الثقافي: مثال: جذر: لها معنى معينا عند علماء النبات

جذر: لها معنى معينا عند علماء الرياضيات، / جذر: لها معنى معينا عند علماء اللغة / جذر: لها معنى معينا عند علماء الصرف

4-**سيّاق الموقف:** ويعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة، ويذكر عالم الأنثروبولجيا مالينوفسكي (**Malinovsky**) كان أول من استخدم عبارة سياق الموقف في اللغة الانجليزية وهو يعني في تصوره أن معنى أي كلمة لا يمكن أن يتضح إلا إذا وُضِعت في سياق معين على نحو ملائم، وكمثال على سياق الموقف نأخذ عبارة (الحمد لله) التي يمكن أن تُقال على سبيل الشكر في دعاء أو على سبيل الشكر بعد الأكل أو بعد زوال محنة. وعناصر سياق الموقف:

1- **الكلام الفعلي**: أي الذي دار خلال الموقف.

2- **طبيعة المتحدثين** (يعني من هؤلاء المتحدثون الذين دار بينهم الحديث ومعرفة كل واحد منهم؛ هل هو أستاذ يشرح درس اللسانيات؟ ، أم المسؤول يحدّث موظفيه)

3- **طبيعة الأشياء المتحدث عنها** (يعني الكلام يدور عن ماذا؟ مثل: الورقة هل أحضرتها ؟ فيقول: الوقت غير مناسب. ويتغير المفهوم في ذهنك ولو عرفت المتكلمين وطبيعتهم وطبيعة الشيء لفهمت الكلام.

4- **الأفعال المصاحبة للكلام**: يجب أن ترى الشخص ، أو يوصف لك، كيف كان يتكلم؛ هل كان يبدو على ملامحه الغضب أو المزاح أو الرضى أو الضجر. لابد أن ترى الأفعال والمظاهر المصاحبة للكلام على وجه المتكلم.

5 - **زمن الكلام**: يجب تحديده في كثير من الخطابات كالمسرحيات والقصص وغيرها مثل: عند الفجر، في العصر، عند العشاء، أي وقت كان وقت الكلام، فمثلا قولنا: السؤال: هل حان وقت الصلاة ؟ الجواب: لا. لا نعرف الزمن وأي صلاة يتحدث عنها.

ودراسة النصّ اللّغوي وفهمه فهما عميقا يحتاج معرفة بالعوامل السياقيّة ، وفي مقدّمتها الثقافة والبيئة والوسط الاجتماعي ويعبّر غراهام هو عن هذا المعنى بقوله : " إنّ قراءة القصيدة خارج سياقها لا تعدّ قراءة أبدا" [5]

ويمكن القول أن التداولية بعدها علم الاستعمال اللغوي ضمن السياق أو طرائق استعمال العلامات ضمن سياق ما، يمكن أن تسمى أيضا بالسياقية كما هي عند "ماكس بلاك"، وأن **مفهوم السياق في التنظير التداولي** يتجاوز الإصطلاح إلى الإجراء العملي، حيث أن السياق في تحليله للمفهوم يمتلك طابعه التداولي، فهو إما:

***سياق ظرفي فعلي وجودي مرجعي**؛ وهوالمحدد لانتماء المتخاطبين وهواياتهم، وبيئتهم المكانية والزمانية، وهوما يحدد مفهوم التداولية بأنها السياق وما يجمعه من أفراد موجودين في العالم الواقعي.

***سياق مقامي تداولي**: وهوما تفهمه الجماعة المنتمية إلى نفس الثقافة على أنها ممارسة خطابية.

***سياق تفاعلي:** مجموعة من العوامل التي تؤثر على تفاعل بين شخصين أو أكثر.

***سياق إقتضائي:** هو مجموعة من المقتضيات التي يحدس بها المتلقون للخطاب من اعتقادات وانتظارات ومقاصد. هذه المقتضيات هي ما يفسر معنى الخطاب ويعطيه سياقه.

ويمكن أن نجمل هذه الأقسام في صنفين هما السياق اللغوي وغير اللغوي،أو كما قسمه اللغوي **"فيرث" إلى السياق اللّغوي**: و يتمثل في العلاقات **الصوتية، و الفونولوجية، و المرفولوجية، والنحوية و الدلالية.** وإلى **سياق الحال**:و يمثله العالم الخارج عن اللغة، بما له صلة بالحديث اللغوي، و يتمثل في **الظروف الاجتماعية والبيئة النفسية و الثقافية للمتكلمين أو المشتركين في الكلام.**

السياق التداولي:

متعلق بالنصّ باعتباره فعلا كلاميا أو أفعالا كلامية، ويقوم على تأويل النص باعتباره فعلا كلاميا أو سلسلة أفعال كلامية، كالوعود، التهديدات، التأكيدات والأسئلة والأوامر (...)، وتبقى مهمة التداولية متمثّلة في تحديد الشروط، التي يجب أن تتوفر في كل فعل كلامي حتى يكون ملائما لسياق معيّن مثل الشروط، التي يجب أن تتمتع بها الملفوظات، ويتألف هذا السياق من جميع العوامل النفسية والاجتماعية، مثل المعرفة التي يملكها مستعملو اللغة، رغباتهم، إراداتهم، أشياؤهم المفضلة، آراؤهم وكذلك علاقاتهم الاجتماعية (...)، فالتداولية النصية، تُعنى بتحديد الشروط، التي تمكّن من ترتيب أفعال كلامية في متتاليات أفعال كلامية، وكذا التساؤل عن كيفية ارتباط هذه المتتاليات بمتتاليات جمل أو ملفوظات النص المنطوق.

الهوامش

1. رمزي البعلبكي ، معجم المصطلحات اللغوية ، ص 119.
2. محمد علي الخولي ، معجم علم اللغة النظري ، ص 57.
3. إبراهيم فتحي ، معجم المصطلحات الأدبية ، مادة سياق. ومجدي وهبة ، معجم مصطلحات الأدب ، ص 8.
4. عدنان بن ذريل ، اللّغة والدلالة ، ص 160.
5. غراهام هو ، الأسلوب والأسلوبية ، ترجمة كاظم سعد الدين ، ص 52.